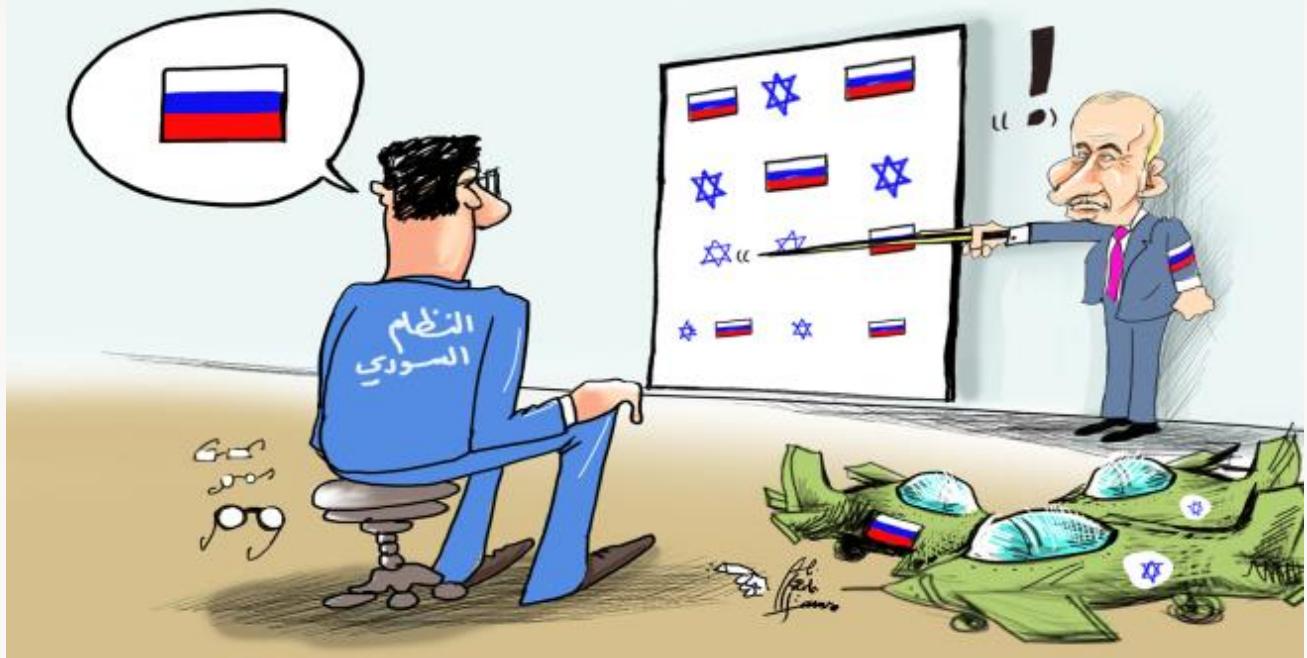


-النظام حَسْط طائرة روسية.



لا يملك غيورٌ على سوريا إلا أن يُصاب بالدهشة، إن لم يكن الاشمئizar، وهو يتبع غبطة بعض أنصار نظام بشار الأسد، وراعيه الإيراني، وسعادتهم، بعُيُّن إعلان روسيا سقوط طائرة عسكرية لها بنيران الدفاعات الجوية السورية، مساء الاثنين الماضي، ما أسف عن مقتل 15 جندياً روسيّاً. مرد سعادة هؤلاء وغبطتهم أن روسيا حَمَلت إسرائيل مسؤولية الحادث، حيث اعتبرت وزارة الدفاع الروسية أن "الطيارين الإسرائييلين جعلوا من الطائرة الروسية غطاء لهم، ووضعوها بالتالي في مرمى نيران الدفاع الجوي السوري". لكن جوقة "نظام الممانعة" والتصدّي "لالمؤامرة الكونية" على سوريا بقيادة الأسد لم تكفل خاطرها إكمال حكاية البيان الروسي الذي احتفلت به، وفيه: إن إسرائيل "لم تبلغ موسكو بالعملية في اللاذقية، بل فعلت ذلك قبل أقل من دقيقة من الهجوم، وبالتالي لم يكن في الإمكان إعادة الطائرة إلى منطقة آمنة". إذن، مشكلة الروس لم تكن في قصف إسرائيل أهدافاً داخل الأراضي السورية، بقدر ما أنها متعلقة بتتنسيق ذلك معهم، والذي من الواضح أنه لم يتم هنا بالشكل المطلوب والمتفق عليه من قبل .

منذ استدعاء نظام الأسد المتهاوي، وحليفه الإيراني المنكك في سوريا، روسيا للتدخل عسكرياً في خريف عام 2015، شنت إسرائيل عشرات الهجمات الجوية والصاروخية على موقع وأهداف داخل الأراضي السورية، بما في ذلك العاصمة دمشق، وغيرها من المدن الرئيسية الكبرى. صحيح أن وحشية الطيران العسكري الروسي قلبت موازين القوى على الأرض لصالح النظام وحلفائه، لكن كان لافتاً أن الدفاعات الجوية الروسية، ومنظومة صواريخ أس 400 المتقدمة، والتي تم نشرها في سوريا منذ نوفمبر/تشرين الثاني 2015، لم تتصد يوماً للطائرات الإسرائيلية التي تسرح وتمرح في الأجواء السورية. هنا يتغلّل بعض اعتذاري "محور الممانعة" بأن صواريخ أس 400 مخصصة فقط لحماية قاعدة حميميم العسكرية الروسية جنوب شرق مدينة اللاذقية، غير أن الحقيقة أن معلومات، شبه مؤكدة، رشت مطلع العام الجاري، مفادها بأن روسيا

أقامت نظام دفاع جوي يغطي كامل الأراضي السورية، بما في ذلك دمشق .

أبعد من ذلك، كانت الصحافة الروسية قد نشرت، بعد زيارة قام بها رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، إلى موسكو، التقى خلالها، الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، في شهر مايو/ أيار الماضي، أن الأخير وافق على وقف تسليم سورية صواريخ أس 300، بسبب اعتراض إسرائيل. تبع ذلك لقاء آخر في الشهر نفسه في موسكو بين وزيري الدفاع، الإسرائيلي أفيغادور ليبرمان والروسي سيرغي شويغو، نتجت عنه تفاهمات حول مناطق خفض التصعيد في جنوب سورية، حينئذ، والوجود العسكري الإيراني في المنطقة الحدودية مع الدولة العبرية. المفارقة هنا أن تقارير صحافية روسية وإسرائيلية كانت قد أشارت إلى تفاهمات مشتركة بشأن حرية إسرائيل في التصرف ضد قواعد عسكرية إيرانية، وأهداف تابعة لها ولحزب الله في سورية، شريطة تنسيق الهجمات الجوية والضربات الصاروخية مع روسيا أولاً. ولعل هذا هو بالضبط ما عناه بيان وزارة الدفاع الروسية أن إسرائيل "لم تبلغ موسكو بالعملية في اللاذقية، بل فعلت ذلك قبل أقل من دقيقة من الهجوم". المفارقة الثانية أن الهجوم الإسرائيلي وقع في اللاذقية، بالقرب من قاعدة حميميم الروسية العسكرية، ومع ذلك لم تطلق صواريخ أس 400 الروسية لاعتراضه، وهو ما يجرّد اعتذاري الاحتلال الروسي في سورية من ذريعة أخرى يتعلّون بها .

ثالثة الأثافي، في هذا السياق، مساعدة روسيا إلى التجاوب مع المساعي الإسرائيلي لامتصاص التوتر المترتب على الحادثة، بل ومحاولة إخلاء ذمة إسرائيل من المسؤولية، وهو ما نزع ورقة التوت الأخيرة التي كان يتستر بها أنصار نظام الأسد من مؤيدي التدخل الروسي العسكري في سورية. بعد يوم من الحادثة، جرت مكالمة هاتفية بين نتنياهو وبوتين، خرج بعدها الأخير، ليعلن في مؤتمر صحافي أنه "يبدو أن هذا الحادث، على الأرجح، سلسلة من الظروف المأساوية، لأن طائرة إسرائيلية لم تسقط طائرتنا". صحيح أن بوتين أكد، في المؤتمر الصحفي نفسه، أن بلاده ستتخذ ما دعاها "إجراءاتٍ سيلاحظها الجميع" لتعزيز أمن جنودها في سورية، كما أنه "حضر" الجانب الإسرائيلي على عدم السماح بحدوث مثل هذا الأمر مرة أخرى"، ووصف "مثل هذه العمليات من سلاح الجو الإسرائيلي (بأنها) تنتهك السيادة السورية"، غير أنه لا يمكن الحكم على هذه التصريحات إلا من خلال الأفعال لا الأقوال. بل إن نتنياهو توعد، بعد المكالمة الهاتفية نفسها، بمواصلة التحرك ضد إيران في سورية، وقال إن إسرائيل "عازمه على وقف التعزيزات العسكرية الإيرانية في سورية، ومحاولات نقل أسلحة فتاكة إلى حزب الله ضد إسرائيل ."

باختصار، سواء انتقمت روسيا من إسرائيل بطريقة أم بأخرى، وهو غير مستبعد، وسواء وضعت قواعد جديدة للعبة في سورية في مواجهة العربدة الإسرائيلية أم لا، فإن ثمة حقيقتين لا تتغيران. الأولى، أن روسيا دولة احتلال في سورية، جاءت لدعم نظام مجرم ضد مطالب شعبه العادلة، وارتكبت من الجرائم والمجازر بحق الشعب السوري ما يجرّر البيان عن وصفه. الثانية، أن روسيا سمحـت لإسرائيل، وعلى مدى ثلاث سنوات، بانتهاك الأجواء والسيادة السوريـتين، وهذا يدل على أن دورها لم يكن هدفـه يومـاً التصدـي "للمؤامـرة" الصـهيونـية والإـمبرـيـالية الأمـيرـكـية – الغـربـية علىـ سـورـيـة، كما يـزـعمـ أنـصارـ نظامـ الأـسدـ وـامـتدـادـاتـ إـيرـانـ، بـقدرـ ماـ أـنـ دورـهاـ محـصـورـ فيـ ضـمـانـ بـقاءـ سـورـيـةـ ضـمـنـ محـورـ التـخـلـفـ وـالـقـمعـ العـرـبـيـ، تحتـ وـصـاـيـةـ إـمـبرـيـالـيـةـ روـسـيـةـ. بـهـذاـ المعـنىـ، تـصـبـحـ إـيرـانـ وـمـلـيشـيـاتـهاـ فيـ سـورـيـةـ، وـالـأـسـدـ وـنـظـامـهـ، مجـرـدـ أدـواتـ تحـاـولـ روـسـيـاـ توـظـيفـهاـ لـمـصالـحـهاـ، حتـىـ وـلـوـ اـقـتـضـىـ الـأـمـرـ الـاسـتـعـانـةـ بـمـطـرـقـةـ إـسـرـايـلـيـةـ لـتـطـوـيـعـهاـ، إـلـىـ حـينـ اـنـتـفـاءـ الحاجـةـ إـلـيـهمـ.

المصادر:

العربي الجديد